

تدريس النص الأدبي في الطور الثانوي بين الواقع و المأمول

علال سميرة دليمة¹

ملخص:

تبقى إشكالية تدريس النصوص الأدبية تطرح بإلحاح في سياق تدريس المواد في الأطوار التعليمية المختلفة، لا سيما في الطور الثانوي، خاصة و أن النص الأدبي باختلاف أنواعه يتطلب الفهم العميق و الاستيعاب الكامل من قبل المتعلمين و ذلك خلال تبني استراتيجيات بيداغوجية من أجل إعداد طلاب أكفاء في تحليل المضامين النصية و تطوير الروح النقدية و البناء الفكري و الدلالي لديهم. غير أن الصعوبات التي يفرضها النص الأدبي إلى جانب عزوف الطلاب عن المطالعة إضافة إلى عوامل أخرى جعلت من نجاح العملية التعليمية على صعيد أهدافها الفكرية يبقى نسبيا.

الكلمات المفتاحية: النص، العملية التعليمية، الأدب، مقاربات بيداغوجية، التواصل.

Abstract:

The problem of literary text didactic is asked constantly as part of discipline didactics, at the secondary level, especially that the literary text need a deep understanding on the part of students, to train them at content analysis and develop their critical mind, but the difficulties imposed by the literary text make this operation relative.

Key words: text, educational process, literature, pedagogical approaches, communication

أضحت إشكالية تعليم النصوص الأدبية تطرح عدة تساؤلات في ظل التغيرات التي يعرفها المجتمع اليوم، خاصة و أن المنظومة التربوية تشكل جزءا لا يتجزأ من المجتمع. حيث تسعى إلى مواكبة الوتيرة المتسارعة للتطورات الاجتماعية الحاصلة نتيجة التطور التكنولوجي و كذا وسائل التواصل الاجتماعي.

من أجل ذلك، عملت المنظومة التربوية جاهدة قصد تحسين و تقويم مناهجها بشكل مستمر وفق ما يتلاءم مع التكوين الفعلي و الفعال للتلميذ في مختلف الاختصاصات: علمية كانت أم أدبية من أجل تلقينه مهارات و خبرات تجعل منه مواطن الغد، معتمدة أساسا على مبدأ التحليل و مشاركته الفعلية في العملية التعليمية التعلمية داخل القسم.

سنسعى من خلال هذا المقال إلى إبراز أهم الإشكالات المتعلقة بتدريس النص في حد ذاته كظاهرة لغوية و تحديد النص الأدبي كوجه من أوجه اللغة و الثقافة معا. كما سنطرح أهم العوائق المنهجية التي تحول دون نجاح هذا الشق من تدريس النصوص الأدبية. إضافة إلى تسليط الضوء على أحدث المنهجيات البيداغوجية المتبناة في سياق تدريس النص الأدبي، تحديدا في الطور الثانوي. وهذا ما جعلنا نتساءل عما هي السبل التي تجعل المتعلم يشكل عنصرا فعالا في بناء عملية الفهم و التحليل؟ و كيف نكوّن تلميذا قادرا على تطوير الروح النقدية لديه؟

و لتحقيق هذه الأهداف، كان من الضروري اللجوء إلى العملية التعليمية الصحيحة و السليمة للنصوص الأدبية بأنواعها من منطلق البحث في البناء العميق للنص، و محاولة فهمه و استيعابه أولا من طرف الأستاذ ثم التلميذ، باعتبار أن النص نسيجا من العلاقات الدلالية و التركيبية "و هي علاقات تجمع أطراف النص و تربط بين متوالياته (أو بعضها) دون وسائل شكلية تعتمد على ذلك عامة" (خطابي، 1991: 268).

إن هدف النص على غرار اللغة تواصلها بالدرجة الأولى، بحكم أن اللغة نتاج اجتماعيا في شكل رموز تعبر عن فكر متكلميها ضمن منظومة اجتماعية معينة. و بذلك لا يكاد يخلو كل نص من الوظيفة التفاعلية و الاخبارية لبلوغ مستوى عال من التواصل، الذي لا يتم إلا بين طرفين على الأقل وفق منظور جاكبسون و هما: المرسل و المرسل إليه و لكل وظيفة اتصالية يؤديها.

يرتكز النص الأدبي في بناءه على "مجموعة من العلاقات الدلالية التي تتجلى بين متوالياته و تتلاحم في شكل بناء منطقي محكم، سواء كان ذلك على مستوى البنية السطحية أو البنية العميقة" (عيسى، 1997: 10-11).

وانطلاقاً من هذا المفهوم، يتوجب على المتعلم أن يرقى إلى مستوى سبر أغوار مكونات النص على سيميائيا وحتى لسانيا، و ذلك من خلال إدراج المفاهيم و المبادئ الأساسية للنظريات السيميائية و الأسلوبية ضمن برامج التعليم الثانوي الخاصة باللغات، حتى يتسنى للمتعلم استيعاب محتوى النص و تطوير قدرته على التحليل.

إن معرفة المتعلم للكيفية الصحيحة في معالجة النص تمكنه من استيعاب مسار العملية التحليلية و التأويلية، لينتقل فيما بعد إلى مرحلة قرائية جديدة تعكس نجاح عملية التلقي عنده و كذا إعادة صياغة المعنى وفق ما يتلاءم و أسلوبه الخاص، لأن النص الأدبي نص ثقافي بالدرجة الأولى يعكس ثقافة كاتبه ضمن المجتمع الذي يعيش فيه، حيث تعتبر كل لفظة فيه تجسيدا لواقعه المعاش أو حتى لتجربة حياتية، مما يجعل التلميذ يكتسب جملة من المفاهيم و المؤشرات الثقافية التي تكوّن فردا منفتحاً على الثقافات و اللغات الأخرى، و تنمي فيه حب الاطلاع و المطالعة الأدبية و كذا اكتشاف الآخر.

و لعل من أهم الأسباب التي أدت إلى تردي مسار تدريس النص الأدبي في الطور الثانوي هي:

- عدم وعي التلميذ باكتساب المهارات اللازمة التي تؤهله إلى فهم النص.

- عزوف التلاميذ عن المطالعة.

- الطرق و المناهج التعليمية الكلاسيكية في تحليل النصوص، من خلال التقيد باستخراج الأفكار و شرح المفردات مما يؤدي إلى التركيز عن الجانب السطحي المورفولوجي للنص دون الولوج إلى بنيته الداخلية في ظل غياب التحليل و النقد الذي يطالب به التلميذ في هذا المستوى. لأن مثل هذه المناهج الكلاسيكية تدفع به إلى التكرار و عدم القدرة على الإنتاج الذاتي للفهم و التأويل.

لذلك تستند المنظومة التربوية حالياً إلى تبني مقاربات بيداغوجية دولية حديثة تسمح للمتعلم بتطوير و تفعيل قدراته الذهنية بشكل واسع، كون المقاربات البيداغوجية تتغير و تتطور بشكل دائم بما يتماشى و متغيرات العصر، حيث تركز هذه الأخيرة على تجاوز مرحلة التلقين بصفة فعلية داخل القسم و الاتجاه صوب مرحلة تطوير الكفاءة الذهنية الذاتية و المقاربة النصية الأدبية من خلال تسليط الضوء على المتعلم باعتباره محورا أساسيا في عملية التعليم و التعلم.

لقد جاء التعليم وفق المقاربة بالكفاءات كأحدث المقاربات البيداغوجية في هذا الشأن ، مناهضا للمفهوم التقليدي للعملية التعليمية الذي يأخذ في الحسبان مفهوم الأهداف النهائية الاندماجية. بعد أن " أظهرت الممارسات التعليمية التي تقوم على تجسيد المقاربة بالأهداف عجزها سواء على مستوى الصعوبات التي تواجه المدرس في تحضير الدرس حيث يعجز في الكثير من الأحيان عن تمثيل تلك الأهداف و تحويلها إلى أهداف إجرائية" (صباح، 2008: 38).

و ذلك من أجل مواكبة التحديات العلمية و التكنولوجية المتسارعة التي مست جل ميادين المعرفة خاصة تلك المتعلقة بالعلوم الإنسانية كعلم النفس و علوم التربية و غيرها، حيث بات من الضروري إعادة النظر في المناهج التعليمية و مراجعة مقاصدها، إلى جانب الاستفادة من التجارب السابقة في هذا المجال كنموذجي التدريس بالمضامين و التدريس بالأهداف اللذين كانا سباقان في هذا السياق و كانا بمثابة كرونولوجيا للكشف عن أسباب تبني المقاربة بالكفاءات.

تناول فيليب بيرينو Philippe Perrenoud مفهوم بيداغوجيا الكفاءات و الوضعيات، و شدد على إظهار المتعلم لمهاراته الخفية حيث يتوجب حسبه على المعلم استخراج هذه الكفاءة عند المتعلم و دفعه إلى توظيفها أثناء الوضعيات الصعبة، غير أن التوظيف الفعلي و الفعال لمثل هذه البيداغوجيات المثمرة عرف تعثرا نظرا لأزمات عدة مست المدرسة الجزائرية حالت دون تحقيق ذلك في آجاله المضبوطة.

"تسعى المقاربة بالكفاءات إلى دمج الكفاءات التعليمية و استثمارها في مواقف تعليمية حياتية مرتبطة في سياق معين" (صباح، 2006: 38).

إلا أن تطبيقها الفعلي داخل القسم يبقى أمرا نسبيا بالنظر إلى طريقة استيعابها من قبل المدرسين.

تقوم هذه الأخيرة على جعل المتعلم قادرا على اكتساب معارف مدرسية جديدة تحوّل إلى أداة للتفكير ، مما ينعكس على النشاط التعليمي التعلّمي و على أداء المتعلم و ممارساته العقلية و السلوكية.

لذا يسعى التعليم وفق المقاربة بالكفاءات إلى تطوير و ترقية المسار التعليمي التعلّمي وفق ما يمكن المتعلم من تنمية كفاءات جديدة لم تكن مفعلة في المناهج السابقة من أجل الخروج من دائرة التحصيل النظري للمعرفة،

حيث أثبتت التجارب افتقار خريجي الجامعات على الكفاءات الوظيفية عند ولوج عالم الشغل و الاصطدام بالحياة المهنية، لذا ينبغي العمل على إنجاح المتعلم في الحياة و تأهيله إلى التوافق مع محيطه بفضل ما يكتسبه من كفاءات ضرورية، تمكنه من اكتساب نظام متناغم و متكامل من المعارف و الإنجازات و كذا المهارات و المفاهيم و مناهج التفكير و التعبير و التواصل، من أجل دفعه إلى التكيف مع محيطه الخارجي أي الاجتماعي المحلي و حتى العالمي.

إن جميع هذه التحديات المنوطة بالمنظومة التربوية تحديدا في تفعيل ميكانزمات جديدة ضمن مقاربات بيداغوجية فعالة على غرار المقاربة بالكفاءات، تسمح بتحليل الوضعية التعليمية إلى مجموعة من الوضعيات الفرعية و تبينها وفق منظور إيجابية المتعلم، بغية إدماجه كفاعل أساسي في بناء التعلمات من خلال خلق جو تعليمي يرتقي بالمتعلم إلى مراحل عليا و يؤثر نشاطه التعليمي التعليمي، و ممارساته العقلية و الحركية على الصعيد الاجتماعي و النفسي داخل المدرسة و خارجها.

تعمل المقاربة بالكفاءات على التحكم في مجريات الحياة و كل ما تتضمنه من ترابط في العلاقات و تعقيد في الظواهر الاجتماعية، و إذا كانت بيداغوجيا الأهداف تعمل على تمكين المتعلم من التحكم في الأداء فإن المقاربة بالكفاءات تعوض و تصحح المسار الدراسي لديه، و تعمل على صقله ضمن قلب و قالب العملية التعليمية التعلمية مما يجعله يبنى تعلماته بنفسه عبر توجهات مكتسباته بالنظر إلى الحياة من جانبها العلمي.

يعرّف الدكتور مُجد الدريج الكفاءات في قوله: " الكفاءات هي قدرات مكتسبة تسمح بالسلوك و العمل في سياق معين، و سيكون محتواها من معارف و مهارات و قدرات و اتجاهات مندمجة بشكل مركب. كما يقوم الفرد الذي اكتسبها بإثارتها و توظيفها قصد مواجهة موقف أو مشكلة ما و حلها في وضعية محددة" (الدريج، 2000: 14).

و من أهم المبادئ التي جاءت بها المقاربة بالكفاءات تجسيد العملية التواصلية و وظائفها بامتياز حيث تتم وفق نسق منسجم من خلال التركيز على:

-محتوى التواصل-----محتوى النص

-تنظيم التواصل-----تفاعل عناصر التواصل

-المتلقي-----المتعلم

-العلاقة: متلقي/ وسط: المتعلم ----- وسط التواصل

-العلاقة: مرسل/ متلقي: المدرّس ----- المتعلم

-المرسل: المدرّس

-الوسط الذي يتحقق ضمنه التواصل وفق مبدأ الانسجام و الاتساق.

إضافة إلى التركيز على المتعلم /المتلقي و توفير الفضاء المناسب للتعلم الذاتي من خلال توفير وسائل تعليمية خاصة كالوسائل السمعية البصرية، تنظيم رحلات استكشافية تثقيفية لفائدة المتعلمين و غيرها.

حتى أن تعلم الجانب النحوي من كل لغة يعد مرحلة حاسمة من مراحل اكتسابها لا سيما عند البنيويين الذي ركزوا على هذا الدور بالتحديد، فتوظيف القواعد النحوية و الصرفية للغة ما من خلال نصوصها هو تفعيل للحوار الداخلي بين المتعلم و نصه ضمن الإطار الخطابي التواصلية الذي ترسيه العملية التعليمية للنص، لا سيما إن تعلق الأمر بنصوص حوارية كالنصوص المسرحية مثلا أو نصوص خطابية قائمة على مبدأ الحجاج و الإقناع.

و لعل الغاية السامية من تدريس النصوص هي حسب رأي داود عبده (1979: 68): "فهم المسموع و المكتوب و التعبير المنطوق و المسموع".

إن تطبيق مبادئ المقاربة بالكفاءات على تدريس النصوص الأدبية، يعد شكلا سليما يجعل من النشاطات اللغوية و البلاغية تدرس وفق نمط اندماجي، حيث يصبح النص محورا رئيسيا في نسج علاقات الدلالة لمنطق الدراسات النقدية و الأدبية تقوم عليه جل النشاطات اللغوية خدمة لملكة التعبير الكتابي و الشفوي لدى المتعلم. و قد اتفقت المناهج النقدية على مصطلح "المقاربة النصية" التي تقتضي التحكم في الإنتاج الشفوي و الكتابي من خلال منطق البناء و هذا ما جعل من تدريس قواعد اللغة و البلاغة و العروض و النقد الأدبي عاملا رئيسا لنجاح العملية التعليمية للنص الأدبي بشكل متكامل.

لتكون بذلك النشاطات اللغوية المنطوية تحت غطاء تعليمية النصوص الأدبية أداة فعالة تمكّن من سبر أغوار النص و مناقشتها و هي إحدى الطرق التي تطوّر القدرات اللغوية الشفوية و الكتابية عند المتعلم.

كما يقوم تدريس النصوص وفق المقاربة بالكفاءات على جعل المتعلم يكتسب الملكة النصية و يطور القدرة على فهم النصوص و إعادة إنتاجها.

اهتمت المقاربة بالكفاءات بهذه النشاطات التعليمية التعلمية من خلال التعامل معها وفق نمط اندماجي في تناول النصوص. حيث تصبح النشاطات اللغوية إحدى وسائل ضبطها ضبطا سليما و فهمها فهما عميقا، مما يساعد المتعلم على سبر أغوار معطيات النص و مناقشتها.

وتزيد القدرة التحليلية النقدية عند المتعلم لاسيما في نشاطات المطالعة الموجهة لأنها عبارة عن تلمين للاستثمار النصي من خلال صياغة أسئلة تدور حول: - تحديد نوع النص

- ضبط معاني الألفاظ الغامضة.

- القدرة على ضبط الأفكار الرئيسة.

- القدرة على التلخيص.

- القدرة على التحليل والنقد لمعاني النص المضمرة مع مناقشتها.

- استثمار المقروء إلى جانب بناء الوضعيات المستهدفة.

كما تسمح العملية التعليمية الصحيحة للنصوص الأدبية للمتعلم بتسهيل و ترسيخ الأدوات التواصلية اللغوية الحياتية، و كذا اكتسابه للملكات التي حددها أنطوان طعمة (2006: 29) و هي:

- **الملكة اللغوية:** يتمكن المتعلم من خلالها من إنتاج عبارات لغوية ذات بنيات متنوعة و معقدة في عدد كبير من المواقف التواصلية المختلفة و تأويلها، كما أن اكتساب اللغة لا يتوقف حسبه في الإلمام بنظامها و بقواعدها فقط بل إنه قائم على استعمال هذه اللغة في سياق اجتماعي.

- **الملكة المعرفية:** و هي الرصيد المعرفي المنظم الذي يكتسبه المتعلم من خلال اشتقاقه معارف من العبارات اللغوية والأنساق النحوية، إذ يخرزها و يستحضرها في الوقت المناسب.

- **الملكة الإنتاجية:** و هي إنتاج الأثر الفكري و الفني مع احترام قواعد التعبير السليم و منها قواعد النحو و الصرف.

بالطبع، فإن للوسائل التعليمية المستعملة داخل القسم أهمية بالغة في نجاح العملية التعليمية، و لأن الجدل يبقى قائما حول مدى فعالية كل وسيلة فإن لتدريس النص الأدبي وسائل قد تسمح ببلوغ المتعلم عدة مستويات من الفهم و التحليل و اكتساب الملكة اللغوية بشكل عال.

يمكن تدريس النص الأدبي من خلال وسائل تعليمية مختلفة قد تتجاوز الوسائل التقليدية الرائجة، حيث أضحت الوسائل السمعية البصرية كالفيديوهات و الأفلام، و حتى المسرحيات في هذا المجال جد مثمرة بل و تجذب اهتمام المتعلم كمتلقي للمادة الأدبية أكثر من تلقينه إياها بطرق و وسائل جديدة.

في الأخير، تبقى العملية التعليمية عملية معقدة و واسعة المدى تتحكم فيها عدة عوامل اجتماعية، سياسية، و اقتصادية و غيرها.

أما عن نجاح عملية تعليمية النصوص و اللغات ككل فتبقى مرتبطة دوما بمدى تطبيق المقاربات بالبيداغوجية الحديثة داخل القسم و مدى تحكم المعلم فيها، إلى جانب اقبال المتعلم على حب المطالعة و تعلم اللغة سواء كانت لغته أم لغة الآخر و ثقافته أيضا، و مدى رغبته في تطوير أدواته التواصلية مما يسمح له بتطوير كفاءاته النقدية.

كما أن تدريس النص الأدبي وفق مبدأ المقاربة بالكفاءات التي تبنتها السياسة التربوية في الآونة الأخيرة يساهم بشكل كبير في تفعيل دور المتعلم ضمن العملية التعليمية إلا أن نجاحها الفعلي يتطلب المزيد من الجهود و الالتزامات من قبل المدرسين و يتطلب من القائمين على القطاع تنظيم دورات تكوينية مكثفة للأساتذة القائمين على التدريس إلى جانب معدي البرامج و المناهج التعليمية من أجل الامام أكثر بمساعي هذه المقاربة في الميدان أي في جانبها التطبيقي الفعلي إضافة إلى توفير المعدات البيداغوجية الضرورية التي تساهم في النجاح الفعلي للتعليم وفق المقاربة بالكفاءات.

المراجع:

1. الدريج مُجَّد: الكفايات في التعليم: من أجل تأسيس علمي للمنهاج المندمج، رمسيديس، المغرب، 2000.
2. خطابي مُجَّد : لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 1991.
3. صياح أنطوان و آخرون: تعليمية اللغة العربية، دار النهضة، بيروت، لبنان، ط1، ج1، 2001.
4. طعمة أنطوان: علم جديد لتجديد التعليم: تعليمية المواد – نحو تعليمية اللغة و الأدب في تعليمية اللغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
5. عبده داود : نحو تعليم اللغة العربية وظيفيا، مؤسسة دار العلوم، الكويت، ط1، 1979.
6. عيسى فوزي : النص الشعري و آليات القراءة، منشأة المعارف، مصر، 1997.